تاريخ استقبال المقال: / /2017 تاريخ قبول نشر المقال: / /2017 تاريخ نشر المقال:21/01/ 2018

بين الديموغرافيا، السياسة والاقتصاد

قراءة وإضاءات لصناعة مفهوم التنمية البشرية

Between demography, politics and economics
Reading and illumination of the human development concept industry

محمد أمين بلعيدي
جامعة البليدة 2 (الجزائر)
أحمد درديش
جامعة البليدة 2 (الجزائر)

ملخص:

إن التاريخ لم يشهد اهتمام الإنسان بالإنسان أو دول متقدمة بتخفيف أوجاع دول أخرى، فكيف يمكن الآن وفي ظل العالم المادي الذي نعيشه أن تحدث تنمية العالم الثالث بيد دول أخرى تعيش في قارات بعيدة. البحث الحالي يقدم رؤية نقدية للأوضاع، الأحداث والحيثيات المحيطة بعملية إيجاد مفهوم التنمية البشرية وخطوة تصديره للعالم الثالث.

البناء المنهجي للعمل اعتمد على تبيان الدوافع الخلفية التي صنعت من المفهوم بديلا ليد الاستعمار القديم والنتائج الظاهرة المترتبة عن ذلك تتعدى الهوة الفاصلة بين المجتمعات في الشمال وجنوب العالم حتى صار المواطن الأمريكي يلقي بـ40% من أغذيته في أماكن التفريغ في وقت يعمل المواطن في بنغلاديش 7أيام/7 و 12 ساعة يوميا دون أن يحقق 500 حريرة يوميا. وهذه صورة لفروقات التنمية التي أوجدتها سياسات المنظمات الدولية بعد قرابة 70 سنة من تأسيسها.

الكلمات المفتاحية: فروقات، التنمية البشرية، العالم الثالث، المجتمعات.

Abstract:

History has never yet witnessed an attachment from man to man, or from a developed state to relieve the pain of other states, from there, and in such a world Material than ours, can we believe in the development of the Third World by other countries living in distant continents. This work provides a critical view of the situation, the events and the circumstances surrounding the process of creating the concept of human development and its transfer to the Third World.

The work provides insights into unconfessed motives, which build a concept, positioning itself as a substitute for the old colonial apparatus, and also allows a review of the resulting results, including gaps between northern and from South. Indeed, an American citizen gets rid of 40% of his food in the landfills at a time when workers in Bangladesh are working 7 days a week and 12 hours a day without reaching 500 calories per day. Even a part of the disparities generated by the policies of international organizations after 70 years of their existence.

Keywords: gaps, human development, third world, society

مقدمة:

بفعل إفرازات التغييرات الحادة والسريعة التي طرأت على العالم الحديث، يتفق الجميع أن الخطوات ثابتة نحو بلوغ أحادية المنظومة أو ما يسمى بالقرية الكونية الواحدة, لعل السبب البارز من وراء ذلك تمثل في الثورات العلمية و التكنولوجية القائمة تحت ظل نهضة الإعلام و الإتصال.

إلا أن هناك حقيقة لا تزال قائمة هي الأخرى مفادها أن الدول المتقدمة تسير مباشرة إلى مزيد من التقدم رغم العقبات و الأزمات الدورية التي تصيبها, بإعتبارها تساهم بإيجابية و فعالية في حدوث الثورة العلمية التكنولوجية الحالية و الإستفادة من عوائدها, بينما الدول النامية مازالت تعاني من آثار التخلف و تحاول بسعي جاد (وفي بعض الأحيان قليل الجدية) لتلّمس مسارات تحقيق التنمية المبتغاة, لكنها تظل في وضع المشاهد أو المتتبع للثورات التكنولوجية الواقعة في الشمال. دون مساهمة فعلية تذكر, فضلا عن محدودية الإستفادة من عوائد التقدم الغربي بإستثناء الإستخدام الإستهلاكي.

ليس فقط في وضعية مشاهد لما وصل إليه الغرب بل إلى متتبع لما آلت إليه التنمية في حدود أقاليمها: سواء تنمية اقتصادية، بشرية أو إجتماعية الكل يصب في قالب واحد وهو التخلف و تبعاته.

إن تسليط الضوء على مصطلح التنمية البشرية أو الاجتماعية يضعنا في مفترق طرق ثلاث ميادين هامة و هي: السياسة، الاقتصاد والديموغرافيا, أما تعريفه فهو الآخر يضعنا في صياغات و توجهات عديدة تختلف بإختلاف الجغرافيا, الثقافة و المعتقد السائد في المجتمع, فبالنسبة للمواطن الصيني القاطن في منطقة ريفية أو المواطن أمريكي المتواجد بنيويورك أو لوس أنجلس تختلف رؤيتهما للأمور, على سبيل المثال مفهوم إستهلاك الكهرباء أو الماء للأمريكي الذي يضع إشباعه عند مستويات عالية تعد تبذيرا عند الصيني المعروف ببساطته, و التنمية عند المسلم تختلف عن الملحد من منطلق معتقدات دينية و مبادئه الشخصية و التنمية عند مواطن من النيجر, الفقير ,الذي لا يملك ربما حتى قوت يومه, تبتعد كثيرا عن تنمية الفرد السويسري المعروف عنه الترف. إذن الكل على وجه الأرض يهدف إلى بلوغ حد من التنمية الشخصية بالرغم من إختلاف القناعات والأساليب, لعل اتخاذ الليونة في التحليل يبقى ضروريا بالنظر إلى طبيعة الموضوع المثير للجدل و استحالة تمرير تعريف شامل وكامل للمصطلح في التقارير الدولية خير دليل على ذلك.

في محاولة منا وضع بعض النظام إلى هذا المصطلح، كان من الضروري العودة إلى أصول وتاريخ فكرة التنمية البشرية, بينما يدرك الكثير أنه على الرغم من وجود عدد من الأعمال المتطرقة لهذه المسألة، GODART[1] و JEGOU[2]. وبالرغم أيضا من تواجد هذه الأخيرة في مفترق الطرق لعديد المجالات الفكرية إلا أن حيز الأفكار يبقى واسعا و زوايا النظر مفتوحة إلى كل الإتجاهات.

الإشكالية:

يصبو العمل إلى التعبير عن ما يجري في العالم من تفاوت و انزلاقات من فقر و غياب للتنمية في إفريقيا و أجزاء واسعة من آسيا و أمريكا اللاتينية ترهن يوما بعد يوم مستقبل الأجيال اللاّحقة بل تهدد مستقبل الجميع, لعل تحريك الأفكار تجاه التناقضات التي باتت غير مطروحة و أصبحت جزءا أساسيا من المشهد العالمي, الذي لا يمكن مناقشته إطلاقا, كحال تنصيب الأمم المتحدة و الهيئات الدولية العالمية على رأس إستيراتيجية التنمية في العالم يعد نقطة إنطلاق لفهم المسار الذي أخذه العالم الحديث.

أيضا, يصنف العمل الحالي ضمن الدراسات النقدية التي تعول على إبراز نقاط الظل التي تتخلل مفهوم التنمية البشرية في المجتمعات عبر العالم, و إظهار الطريقة التي أوصلت العالم إلى ما هو عليه من تباين على جميع الأصعدة (الاقتصاد, التنمية البشرية) و السؤال الذي يبقى مطروحا هو كيف لعالم مادي تهيمن عليه دول استعمارية قديمة أن يساهم في التخطيط لتنمية دول العالم الثالث؟

بصورة أخرى, لا يمكن في أي حال من الأحوال التطرق إلى مجال التنمية البشرية دون الحديث عن مصدر الكلمة و كيف لمصطلح كهذا أن يلقى إجماعا عريضا بين الدول؟, سواء متقدمة أو متخلفة, حبث الكل ينادي بضرورة تنمية الإنسان كإنسان, هذا الأمر مدعوم أيضا من طرف الهيئات الدولية و المنظمات الإنسانية و الجمعيات بشتى مشاربها. وماهي الجوانب الخفية التي صنعت من المفهوم لغة الإقتصاد والمجتمع حاضرا؟ وأي وضعية للعالم بعد كل ذلك؟

من جهة موازية, الهدف من وراء هذا العمل ليس سرد وقائع تاريخية فقط بقدر ما أنه تصور للحالة التطورية التي شهدها مفهوم التنمية منذ سنوات أو بالأحرى منذ قرون, في خضم هذه العملية توجد أحداث ووقائع بارزة لعبت دورا لافتا في صناعة التنمية البشرية بمفهومها الحالي, يمكن أن يكون نظرة نقدية لتلك الخلفيات الإيديولوجية الغربية التي جاء من خلالها المصطلح, كما نعلم أن المصطلحات عند الغرب تصاغ وفقا للأهداف المنطلق منها, على سبيل المثال لا الحصر تم استخدام مصطلح القنابل الذكية عندما تعلق الأمر بتليين أسلحة محرمة دوليا تم الإعتماد عليها في الحروب الأمريكية و إستعمال مصطلح أسلحة الدمار الشامل التي يحوز عليها صدام حسين عندما تعلق الأمر بإيجاد ذريعة للتدخل في العراق, يعني الصيغ تختلف و المعاني واحدة. كذلك يمكن أن يكون الحال لمصطلح أساسي بنيت عليه قوائم الدول كالتنمية البشرية.

رغم أن المثال المطروح يعود إلى عالم السياسة إلا أن الاقتصاد يحمل أمثلة مشابهة عديدة, و لابد من تطبيق نفس المبدأ لتفسير الإستعمار عن بعد, المطبق من طرف الغرب منذ منتصف القرن 20 . رغم أن العمل له صبغة الدراسات السوسيواقتصادية إلا أنه يحمل جوانب سياسية وحتى تاريخية تخدم هدفه الأساسي.

التطور التاريخي لمفهوم التنمية البشرية:

تنمية بشرية أو إنسانية , تنمية دائمة, تنمية إجتماعية, تقدم إجتماعي, رفاهية, رخاء إجتماعي و إقتصادي, كلها معاني تعود إلى عصور بعيدة, فمن البديهي أن يرغب الإنسان في العيش الكريم, فلا يمكن أن ينكر أحد أن الإنسان في الماضي أو الحاضر يستهدف دوما العيش من دون معاناة, و ذلك أمر فطري لكن زوايا النظر لتلك الحالة الشعورية تختلف من منظومة إجتماعية إلى أخرى عبر الأزمنة.

من توسيع الرقعة الجغرافية المحازة إلى توسيع دائرة المتاحات البشرية: وثبة نوعية

انحصر مفهوم التنمية والتقدم في العهد الروماني القديم على الإنجازات العسكرية المحققة، فلا مجال للتنمية البشرية إلا عن طريق التوسع الجغرافي في غرب أوربا وشمال إفريقيا و تقوية الجيش, حتى بلغت الحضارة ذروتها سنة 117 بعد الميلاد، بتعداد سكاني وصل إلى حدود 88 مليون نسمة و مساحة قدرت بـ5 ملايين كم^2, أي ضعف مساحة و سكان الجزائر في 2015 و بهذا تصدر الرومان قائمة إمبراطوريات العالم آنذاك[3].

لعل الواقع في تلك الحقبة من الزمن حتم هذه الوضعية، وضعية طغيان الطرف الأقوى على باقي الأطراف و البقاء لصاحب المساحات الشاسعة و القدرات العسكرية الرفيعة لأن في الأخير التنمية لا تتعدى الاستيلاء على أملاك الشعوب الأخرى، كل ذلك دون الإنقاص من مساهمات الرومان في بناء الحضارة الغربية الحديثة.

كان سلم التنمية يحدده البعد الديموغرافي و من ثم عدد الأفراد المقاتلين و كلما زادت رقعة الإمبراطورية اتساعا ارتفع أعداد السكان المنظورين تحت لواءها و توسع الجيش، حتى صار الرومان في ريادة العالم في نفس شكل الولايات المتحدة الأمريكية حاليا لكن بمنظور آخر و منطلق آخر للتنمية.

من بين الاعتبارات التي حولت مفهوم التنمية بين الماضي و الحاضر، انهيار هذا التصور المحدود في شرح مصطلح التنمية, فالمساحة حاليا لا تعتبر محددا لتنمية الدول و العديد من الأمثلة عبر العالم ترجح هذا القول و اليابان على رأس القائمة, دولة بمساحة تقل عن[4] 377000 كم^2 أي ثمن مساحة السودان أو الكونغو (من بين أفقر دول العالم) لكن بتنمية اقتصادية و إجتماعية مرتفعة[5], و مفهوم التنمية أصبح حاليا أكثر عمقا من ذي قبل,

و شروط تحقيقها أكثر تعقيدا لأنها متعلقة بشؤون الاقتصاد, المجتمع, السياسة و حقوق الإنسان مجتمعين. في حين الحضارات النامية القديمة تعلقت بمحور واحد و ووحيد لرسم خريطة التنمية فيها, فالرومان ركزوا كل جهودهم على القوة العسكرية و التوسع الجغرافي و المصريين القدامى وضعوا نصب أعينهم هدف التشييد و البناء و الصينيين لعبوا على وتر الطب و أساليب تطويره.

كل كان له سبيل منفرد لإحداث التنمية بمفهومهم الخاص و بصيغة أخرى, يمكن أن تكون للتنمية صبغة تقوية الجيش و المناطق الجغرافية أو تنمية البنايات أو صبغة تنمية الطب, لكن مفهوم التنمية حاليا يجمع الكل في قالب واحد زيادة إلى تحديات العصر الحديث من قيود حماية البيئة والمساواة بين أفراد المجتمع.

بعيدا عن تلك التوجهات الحضارية لمفهوم التنمية، جاءت تعاريف عديدة تصب في نفس الإطار حول مدلول التنمية, التعريف الأكثر نجاحا كان ضمن التقرير المقترح من طرف لجنة بلدان الجنوب و الذي يرسم رؤيتهم الخاصة حول التنمية, و كان الرئيس التانزاني Julius NYERERE قد صاغه فيما يلي «*التنمية هي عملية تسمح للإنسان بتطوير شخصيته و أخذ الثقة بنفسه و التطلع إلى حياة كريمة و مزدهرة, هو أيضا عملية تحرير الشعوب من الخشية من الحاجة و الإستغلال, ما يسمح بخفض الإضطهاد السياسي, الاقتصادي و الاجتماعي*», هذا التعريف يلخص رؤية عالم عانى الكثير و يأمل في الأحسن أو بالأحرى هي ليست تعريفا للإقتصادي أو السياسي المحصور في قالب معين لكن هي تعريف مصاغ من طرف الإنسان, ذلك الكائن الحي الذي عاش الفقر و الأمراض بغض النظر عن إنتماءاته.[6]

مسار تطور المفهوم: من تعبير قديم بنكهة حضارية إلى صياغة حديثة بتصور دولي

رغم تعدد التعاريف و تقاربها إلا أن مشروع صناعة مفهوم التنمية البشرية يعود إلى القرن الرابع عشر, ذلك المشروع الذي مازال متواصلا حتى الآن, عمل قاده إبن خلدون, رغم عدم ذكره للمصطلح بحد ذاته إلا أنه وضع القاعدة الأساسية للمفهوم, و مخطوطاته التاريخية تشهد على ذلك, إذ قال في إحدى مواضعها «*أعلم أنّ اختلاف الأجيال إنما هو باختلاف نحلهم من المعاش، فإنّ اجتماعهم في أحوالهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري من قبل الحاجي والكمالي، وكان حينئذٍ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوة والذخيرة إنّما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة، ويحصل بُلْغة العيش من غير مزيد للعجز عمّا وراء ذلك، ثم إذا اتّسعت أموال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفاهيّة دعاهم ذلك إلى السكون والدعة*»

و بالرغم من أن الخطاب يعود إلى أكثر من 7 قرون إلا أنه يعد مصدر إلهام للإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر سنة 1948 و يعد أيضا خزانا للمفاهيم الدولية المنتقاة من طرف منظمة الأمم المتحدة, بتأسيسه موضوع «ترشيد الموارد للأجيال اللاحقة» و إنفرد بمصطلحات «الرفاهية», «حفظ الحياة», لكن الأبرز من كل ذلك حمله بوادر تأسيس مفهوم التنمية البشرية كمصطلح مهم في دراسات القرن الواحد و العشرين.

جاء عقب هذا الخطاب بقرون الإعلان العالمي لحقوق الإنسان و تنصيب الدعائم الأساسية لمفهوم التنمية البشرية ، حيث تماشى هذا الميثاق الدولي الموجز في 30 مادة[7] و التعريف المقترح من طرف PNUD و الملخص في «عمليات توسيع دائرة الخيارات المتاحة للأفراد»[8] حيث تنص المادة 25 أن «لكل شخص الحق في مستوى من المعيشة ,كاف للمحافظة على الصحة والرفاهية له ولأسرته، ويتضمن ذلك التغذية ,الملبس ,المسكن , العناية الطبية وكذلك الخدمات الاجتماعية اللازمة، وله الحق في تأمين معيشته في حالات البطالة والمرض والعجز والترمل والشيخوخة وغير ذلك من فقدان وسائل العيش نتيجة لظروف خارجة عن إرادته» [9].

رغم ذلك فإن الظهور الأول لمصطلح التنمية البشرية جاء على يد ULMANN في سنة 1932, أين ذكر في إحدى مقالاته «أن من واجب الاقتصادي تحرير بعض المبادئ الإنسانية التي من خلالها يتم تصميم الهيكل

الاقتصادي المترجم لها»[10] أي بلغة أخرى إقحام عناصر إنسانية في التحاليل الاقتصادية و النظر إلى التنمية البشرية من منطلق الفرد قبل الولوج إلى الإنفاق البشري كصيغة مادية حسابية (نمو اقتصادي...) و بالتالي فإن المصطلح لم يلد مع تقارير البرنامج الأممي للتنمية بل ساير مجموعة من التيارات الإنسانية التي ظهرت مع إنقضاء الحرب العالمية الأولى لترميم ما تبقى من مفهوم للبشرية بعد الأحداث الفظيعة التي وقعت.

مفهوم التنمية البشرية بلغة الواقع: ماهي إلا تجسيد لأهداف مجموعة دول على حساب العالم الثالث

رغم أن التنمية الإنسانية تترجم بصورة أدق معنى المفهوم الموجود في التقارير الأممية و بشكل يفوق وضوح مصطلح التنمية البشرية المرتبط أساسا بعلم تطوير القدرات العقلية للإنسان و تنشأتها, إلا أن بلغة الواقع, التنمية (سواء إنسانية, بشرية أو إجتماعية) هي حملة تشجيع نشاطات معينة و محددة على حساب أخرى و في دول بعينها دون أخرى, التنمية هي بناء العيادات الطبية, تشجيع التصدير, تشييد الطرقات, جمع رؤوس الأموال, إعادة صياغة الميزانيات الوطنية, فرض إستيراتيجيات معينة, بناء السدود, تحرير التجارة, إستيراد التكنولوجيا, يعني باسم التنمية يمكن القيام بكل النشاطات الإنسانية الحديثة, رغم أنه بصورة مباشرة لا يوجد أي دليل على مرافقة العمليات المذكورة تنمية الإنسان كفرد, علما أن الهدف الأول و الأخير يتمثل في الرفع من شأن الإنسان كفرد لا القيام بأعمال مضبوطة و موجهة.

هذا المصطلح الذي يتسم بالمرونة في تعريفه, يلخص بشكل مناسب كل التطلعات الإنسانية الفاضلة, و هو بالتالي الإجماع على منظومة قيمية غير قابلة للجدل في كل مكان أو زمان, الأمر الذي يعد صعبا للتصديق, كيف لا و المجتمعات تختلف و الثقافات أيضا, إن إقدام السلطات السعودية على سبيل المثال منع سياقة المركبات على النساء لقي مجابهة عنيدة من طرف منظمات حقوقية لحماية المرأة, في نفس هذا الوقت تمسكت فئات عريضة من المجتمع بمساندتها لمثل هذه الإجراءات, على أساس أنها مسائل فقهية و الفقيه هو من يتولى أمرها و على المحكومين إلا التطبيق, و بالتالي يمكن القول أنه لا يوجد حدود للتنمية, و إختلافها من مجتمع إلى آخر يعيق محاولات توحيد تعريفها, لكن الغرب يحاول إخضاع العالم بأسره إلى تعريف واحد, هو ذلك الذي يخدم مصالحه و يحيي تنميته و فقط.

من جانب آخر, و بالرغم من إستحالة إيجاد تعريف موحد للتنمية تقبل به كل المجتمعات و الدول إلا أن آثارها تبقى حاضرة و بقوة, أمام كل هذه المنظمات غير الحكومية الناشطة في الساحة و برنامج الأمم المتحدة من أجل التنمية و المعاهد الدولية المتخصصة في دراسات التنمية و في ضل وجود منظمات تتكفل بموضوع التنمية كالبنك العالمي و FMI لا يمكن إلا الإيمان بوجود التنمية كأمر واقع مفروض من دون تحرير واضح و صادق لمفهومه.

لكن كيف تشكل هذا الواقع المفروض؟

بعد انقضاء الحرب العالمية الثانية و ما خلفته من دمار في أنحاء متعددة من العالم, كان من الضروري على الأوربيون بصفتهم الولي الشرعي للقرار في القرن 20 إيجاد صيغة جديدة للإنتقال إلى محطة أخرى غير السبيل الإستعماري, تلك اليد التي "أثمرت" و لعبت دورا في إيصال أوربا إلى ذرة الحضارة لكنها هي الأخرى من ساهمت في صناعة النازية[11], و بالتالي هذه اليد كانت سلاحا أستعمل ضد أوربا و الأوربيون, و في الأخير الخراب خيم على ربوع القارة.

أيضا حصل إجماع كلي بين الغرب الأوربي و الأمريكي و حتى الإتحاد السوفياتي إلى المرور لأسلوب آخر غير الإستعمار القديم لمحاورة ثروات العالم المتواجدة في الجنوب, و ضمان ذلك لن يأتي إلا بعد وضع هيئة دولية توكل إليها شؤون تنظيم العلاقات الدولية و تكييفها من أجل إحلال السلام, و بلغة أخرى تفادي سيناريو تكوين غول نازي يأتي على ما بنته أوربا في قرون.

من بين التحديات الأوربية أيضا, كانت مواجهة المد السوفياتي في أوربا الشرقية, حيث إنتشر الفكر الستاليني في أرجاءها: بولونيا (1947), رومانيا(1948), تشيكوسلوفاكيا(1948), هنغاريا(1949), الحرب في اليونان (1946-1949), حصار برلين, و بالتالي أصبح الإتحاد السوفياتي يهدد سلام أوربا[12] التي كانت في نفس ذلك الوقت في مرحلة البناء و التشييد عبر إقامة مشروع مارشال, الأمر الذي إستلزم التكتل في قطب عسكري واحد قوي يمكن له التصدي إلى هجمات سوفياتية مرتقبة تفسد على الأوربيين سياستهم الجديدة المرتكزة على خطط إقتصادية للحصول على ثروات "الغير" المتروكة بعد نهاية زمن الإستعمار[13].

جنوب العالم هو الآخر يعيش تحولا, حيث استقلت العديد من دول العالم في فترة وجيزة, أغلبها الهند, القوة الديموغرافية العالمية إلى جانب الصين المستقلة أيضا في 1949 و وصول ماو سيدونغ إلى الحكم, بالإضافة إلى اندونيسيا (1945) و تكوين جامعة الدول العربية (1945), كل هذه الأمور كانت بمثابة جرس إنذار لأوربا و الغرب عامة حتى يعلموا أن العالم صار مغايرا عن ذلك العالم المكتشف حديثا و الذي إستعبدوه طويلا تحت جثث شعوبه الأصلية. ذلك العالم الذي ظن سكانه أن الأوربيون هم آلهة مقدسة و من الضروري عبادتها أصبح من الماضي, نتحدث عن سكان أمريكا الشمالية الأصليين عند وصول كريسفوف كولومب إلى قارتهم و ما وقع آنذاك من أحداث تاريخية مؤسفة في حقهم.

مع نهاية 1948, عاشت الخارجية الأمريكية نوعا من الإنفعال نظرا لهذه التطورات المتلاحقة و التي من شأنها إحداث التغيير في دواليب الحكم في العالم, و كان على الرئيس ترومان إلقاء خطاب حول كل ما يجري من أحداث في 1949, الموجز مما قاله ضم ثلاث نقاط تقليدية و هي مواصلة الجهود الرامية إلى بناء أوربا عبر مشروع مارشال (تشييد), مواصلة الدعم للأمم المتحددة (بهدف ضمان السلم في حدود آقاليمهم الجغرافية و سلام أوربا من سلام الو.م.أ) و إستحداث الحلف الأطلسي العسكري (لمواجهة الإتحاد السوفياتي).

أما النقطة الرابعة و هي الأكثر أهمية بالنسبة إلى موضوعنا و هي إقتراح من أحد الموظفين, مست تمديد الدعم التقني الموجه حاليا حصريا لبعض دول أمريكا اللاتينية إلى دول العالم الأقل ثراءا, هذه النقطة تختلف عن الثلاث نقاط المذكورة في كونها نابعة من الإرادة الأمريكية و ليس لها أي صلة باتفاقيات دولية مبرمة مع أطراف أخرى كما هو حال النقاط الثلاث الأولى و بالتالي فإن هامش المراوغة يبقى كبير, و الدعم التقني لن يكون إلا بوجود نظير مادي في المقابل, حيث جاء في نص النقطة الرابعة لترومان ما يلي:*« رابعا, يجب علينا إطلاق برنامج جريء, يضع إستحقاقات تقدمنا العلمي و الصناعي في خدمة تحسين نمو العالم المتخلف (الأقل نموا) , أكثر من نصف سكان العالم يعيشون أوضاعا قريبة من المزرية, تغذيتهم غير ملائمة, هم ضحايا الأمراض, حياتهم الاقتصادية بدائية و مستقرة, فقرهم يمثل تهديدا و إعاقة لهم و للمناطق الأكثر إزدهارا. لأول مرة في التاريخ, البشرية نحوز على المعارف التقنية و العملية القادرة على التخفيف من معاناة هذه الشعوب»*[14]

و تعد المرة الأولى التي يستعمل فيها مصطلح الدول المتخلفة في خطاب رسمي واسع النشر، مستعملا تلك البلاغة المعهودة في الخطابات الرئاسية لجمع التنمية و التخلف في كلمة واحدة لها مداليل و خلفيات عديدة و تعود حقوق ترويج هذا المصطلح للرئيس الأمريكي ترومان, ليس فقط الترويج لمصطلح بقدر ماهو الإعلان عن أسلوب جديد يعوض تلك الإستعمار القديم, , يلخص الجدول الموالي أبرز الفروقات المرصودة بين الأسلوبين.

الجدول رقم 01: مقارنة بين التوجهات الإصطلاحية

الثنائية	استعمار-مستعمر	دول نامية وأخرى في طريق النمو
طبيعة المدلول	مختلفتان: المستعمر أجنبي والمستعمر محلي أصلي	كلمتان من نفس الفصيلة اللغوية: كلتاهما تدلان على نمو لكن بقدر مختلف
الصورة	الترويج لصورة سودوية مرتبطة بالقتل	تلميع صورة الغرب
الصدى الإعلامي	سلبي: إخضاع الشعوب ونهب الثروات	إيجابي: معاني تحفيز دول للحاق بأخرى

المصدر: من إعداد الباحث

هذا المسار التاريخي الذي جاء على إثره مصطلح التنمية البشرية كان مدعوما بخطاب دولي منظم، تبنته مجموعة من الهيئات الدولية وتحرص عليه الدول الراعية له، نتطرق فيما يلي إلى أهم النقاط التي تدفعنا إلى التشكيك في النوايا الظاهرة الحسنة من وراء صناعة موضوع التنمية البشرية.

خطاب التنمية البشرية: بعض الخلفيات المشككة في النوايا الدولية

تكمن قوة الخطاب المحيط بالتنمية في قدرته على الإغراء، ربما هذا المصطلح يبدو بعيدا عن مفهوم التنمية شكلا لكن مضمونا هو ملائم ومطابق إلى حد بعيد، كيف يمكن الاستسلام إلى فكرة رنانة وعمل نبيل كان الهدف من وراءه القضاء على الفقر والمجاعة في العالم، حيث في حياتنا اليومية دوما نقدس المبادرات الطيبة، كيف لا والعلاج نفسه لم يكن أبدا سببا في تفاقم الوضع وزيادة الفروقات بين الدول حتى نشكك في نواياه. كل هذه الأسئلة وأخرى تجعلنا نؤمن بالجهود الدولية الرامية إلى الحد من الفروقات بين العالم المتقدم والعالم الثالث.

غير أن التاريخ لم يشهد اهتمام الإنسان بنظيره الإنسان أو دول متقدمة بتخفيف أوجاع دول أخرى، خصوصا إذا تواجدت تلك الدول في قارات بعيدة، فالتاريخ المليء بالتجارب المؤلمة لتحركات دولية كان هدفها المصلحة الخاصة دون أدنى اكتراث بما يمكن أن يؤول إليه مصير الشعوب، والأمثلة غزيرة، لعل اكتشاف العالم الحديث (استراليا وأمريكا) خير دليل على ذلك وما وقع من تقتيل وجرائم في حق الشعوب الأصلية صورة مضغرة لهذه الصيغة، ضف إلى ذلك الإستعمار الحديث و ما حمله من تحطيم لقوائم الآهالي. إذن السؤال الآخر المطروح بشدة هو لماذا تم تقدير أنه من الضروري الأخذ بزمام الأمور حاليا وبصورة فعلية، و تم إستقطاب رؤوس أموال ضخمة و بث أمال كبيرة في قلوب الشعوب المقهورة.

نقطة أخرى مهمة تسمح بفتح قناة للشك في النوايا الدولية، هو أن التنمية ليست مرتبطة فقط بدول العالم الثالث بل تمتد إلى العالم المتقدم أين توجد مناطق عديدة تنخفض معدلات التنمية فيها إلى مستويات بعض دول العالم الثالث, فألمانيا الشرقية ضلت تصارع الفقر رغم أن الدولة الموحدة تحوز على إقتصاد قوي إلا أن ذلك أبقى على الإختلال في توزيع الثروات بين الشرق و الغرب لسنوات بعد 1990 و الأجدر للدول الأوربية التصدي إلى مثل تلك الإختلالات في حدود أقاليمها الجغرافية قبل المرور إلى أقاليم الدول الأخرى, و في حدود ما يقبله العقل و في ضل الصراع الجيوسياسي و الاقتصادي العالمي لا يمكن في أي حال من الأحوال تقبل فكرة "تجميد تقدم دول إنتظارا لوصول المتأخرين" أو بلغة مغايرة "عدم إنماء الداخل والإكتراث بإنماء الخارج البعيد"

أما على صعيد التقارير الدولية فقد جاءت فيها مواطن عديدة مست الهدف من التنمية البشرية و ذلك إبتداء من 1991 من بينها "وضع التنمية في خدمة الإنسان, و خاصة الإنسان الأكثر فقرا", كأن ذلك إعترافا صريحا أن التنمية لم تكن يوما في خدمة الإنسان قبل هذا التاريخ, هذه الصيغة تطرح أكثر من تساؤل عن دور الأمم المتحدة منذ تأسيسها و ما قامت به من أجل الفرد, الشيء الإيجابي من وراء هذه اللغة هي تغير اللهجة الدولية من إهتمام مباشر و حصري بالإقتصاد إلى خطاب ينم عن إمكانية وضع التنمية حقيقة في مكانها الطبيعي و هو الإنسان و

بلغة مغايرة جعل رأس المال البشري الذي يمثل عامل من عوامل النمو في النظريات الاقتصادية المقترحة غاية أسمى للتنمية. بعدما تطرقنا إلى الخلفيات التاريخية والجوانب الخفية المحيطة بموضوع التنمية البشرية، نقترح فيما يلي حصيلة موجزة عن وضعية التنمية البشرية في القارات الخمس ونطرح العديد من التساؤلات الموضوعية فيما يخص ذلك.

وضعية العالم بعد 70 سنة من انطلاق مشروع صناعة مفهوم التنمية البشرية:

إن هذه النظرة الممتدة منذ نهاية المنتصف الأول من القرن الماضي ساهمت في توسيع الفجوة بين العالمين المتقدم و المتأخر, و خلق شرخ واسع بينهما كان مصدره الفروقات الإقتصادية في باديء الأمر ثم إنتشر إلى مجال الصحة, التعليم و الدخل مباشرة, لأن إقتصاد قوي و متين يعد منطلق كل تنمية بشرية و الشكل رقم 01 يبرز العلاقة بين الطرفين.

كيف لم يكن سبب الفجوة إقتصادي و الأسبقية في التجارة الدولية تبقى للدول المتقدمة حيث درجة التنمية فيها تسمح لها بخلق إتفاقيات وفق مبدأ المعاملة بالمثل مع الدول ذات التنمية الضعيفة، في حين تطالب هذه الأخيرة بالترجيح إلى مبدأ المعاملة بالمثل بمفهومه الضمني أي "إعطاء مقابل لما أخذ إنطلاقا من وضعيتها كدولة في طريق النمو لا إنطلاقا من وضعية الدولة متقدمة". فالإمتيازت الجمركية الممنوحة لدول العالم الثالث عند تصدير المواد المصنعة تبقى غير مستغلة نهائيا بالنظر لحالة الآلة الصناعية في هذه البلدان في حين تستغل الدول المتقدمة كلية إمتيازاتها الموضوعة.

من الجانب التاريخي, عرفت سنوات التسعينات أملا كبيرا في توسيع دائرة التنمية البشرية على كافة دول العالم, خصوصا بعد إنهيار جدار برلين و تقسيم الإتحاد السوفياتي, حدثين بارزين أعطيا إنطباعا أنه حان الوقت لطي صفحة الماضي المؤلمة و التفكير في توجيه الميزانيات العسكرية إلى بناء الجنوب, رغم أن التحدي الأول كان بناء أوربا الشرقية و إعادتها إلى مكانها الطبيعي. التحديات الأخرى كانت النعرات و الحروب الأهلية المتوهجة في إفريقيا: الصومال, أنغولا, بورندي, رواندا, دون نسيان يوغسلافيا, لكن الآن يبدو أن تحديات الفقر و الهوة بين العالمين هما من يصنعان الحدث.

الفجوة بين الدول المتقدمة والمتخلفة في توسع: الإيديولوجية المفعلة في قفص الاتهام

في ضل كل هذه الإتفاقيات الدولية التي تصب في خانة الدول المتقدمة تبقى عملية تطوير برامج تنموية إقتصادية وإجتماعية فعالة أمر صعب بالنسبة لدول العالم الثالث و الخروج من دائرة التخلف يبقى هو الآخر في غاية الصعوبة, و تبقى الدول التي قامت بطفرة على الصعيدين الاقتصادي و الاجتماعي ماهي إلا إستثناءات فقط.

ما حجم الفجوة الموجودة بين العالمين؟

و إذا أردنا ملامسة ذلك الفرق الموجود من خلال رؤية كاملة متكاملة, فإن علينا التوجه إلى المعايير الدقيقة التي تضعها منظمة الفاو لتحديد "الإنسان أو الفرد المرجعي" أي ذلك الفرد الذي يتناول معدل 3000 سعرة حرارية يوميا و يعمل نشاطا يسمح له بتحرير طاقة متوسطة لمدة 8 ساعات و يعيش في منزل مع 5 أفراد مكون من غرفتين سعتهما 18م^2 , هذا الرسم المرجعي يمثل شكل الإنسان الطبيعي وفق تصور المنظمة, لعل هذه الصورة النمطية تبدو قريبة لفرد يعيش في العالم المتقدم أكثر منها في العالم الثالث, أين يطالب الفرد في ريف بنغلاديش بالعمل أكثر من 10 إلى 12 ساعة يوميا و 7 أيام/7 مقابل دخل لا يكفي لشراء 500 سعرة حرارية على أكثر تقدير[15], أما في الجهة الموازية, الفرد في الو.م.أ يلقي بـ 40% من غذاءه في أماكن التفريغ و هو ما يمثل 48 مليار دولار سنويا (80% من ميزانية دولة بحجم الجزائر) و ما يعادل 40.000 مليار لتر من المياه و هو بقدر إحتياجات 500 مليون نسمة حسب ما توصلت إليه دراسة قامت بها مجلة بلووز في نوفمبر 2009[16]

يعد هذا الشق من التنمية البشرية الذي يدخل في إطار التغذية الصحية و مرافق الضرورية للعيش ثانويا في بقاع كثيرة من العالم الثالث مقابل الكفاح من أجل الحياة, حيث أن ذلك الفرد الذي يشتغل في ريف بنغلاديش يواجه تحدي العمل في هذه الظروف أو الإستسلام للموت الحتمي, إذن منظومة التنمية في الكثير من الدول تبقى رهينة البحث عن الحياة لأفرادها لا أكثر و لا أقل.

المشكل الآخر الذي يواجه تلك المنظومة الاجتماعية الفجوة الواسعة بين أقطاب المجتمع, ربما أكبر مما هي عليه مع مجتمعات العالم المتقدم, حيث الغني فيها يفوق غني أوربي أو أمريكي, و نفس الشيء بالنسبة للفقير.

إستيراتيجية: "كلما زادت ثروة الغني أصبح العالم أكثر رخاء"

أمام هذه الهوة الفاصلة، من الصعب للعالم الثالث تقبل مثل هذه الرؤى، والإيديولوجية الغربية المطبقة ترتكز على ما يسمى بجريان المياه التدريجي من الأعلى "الفئة الغنية" إلى الأسفل "الفئة الهشة" هذا التعبير يلمح إلى إمكانية تحسين ظروف الفقراء عن طريق الإستهلاك المسجل من قبل الأغنياء و الثروات الإضافية المنتجة تسمح بتقليص الفوارق.

العالم المتقدم يرى أن المساوات مرغوب فيها و يعمل على إظهار رغبته في تحقيقها عبر الهيئات الدولية لكن في حقيقة الأمر يرى أن التفاوت هو المنتج و بغير تلك الثنائية (غني–فقير) لا يمكن في أي حال من الأحوال قيام مؤسسات و شركات ذات طابع ربحي, حسب هذا المنطق التفاوت غير أخلاقي لكن هو في الأصل ضارة نافعة, لكن الواقع يكشف حقيقة الحال, و ظاهرة الهجرة الخارجية من إفريقيا إلى أوربا و مدى تأثيرها على الإقتصادات الأوربية تبين مدى فشل تلك الإيديولوجيا المفعلة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

الشكل رقم 01: ترتيب العلاقة اقتصاد–تنمية بشرية

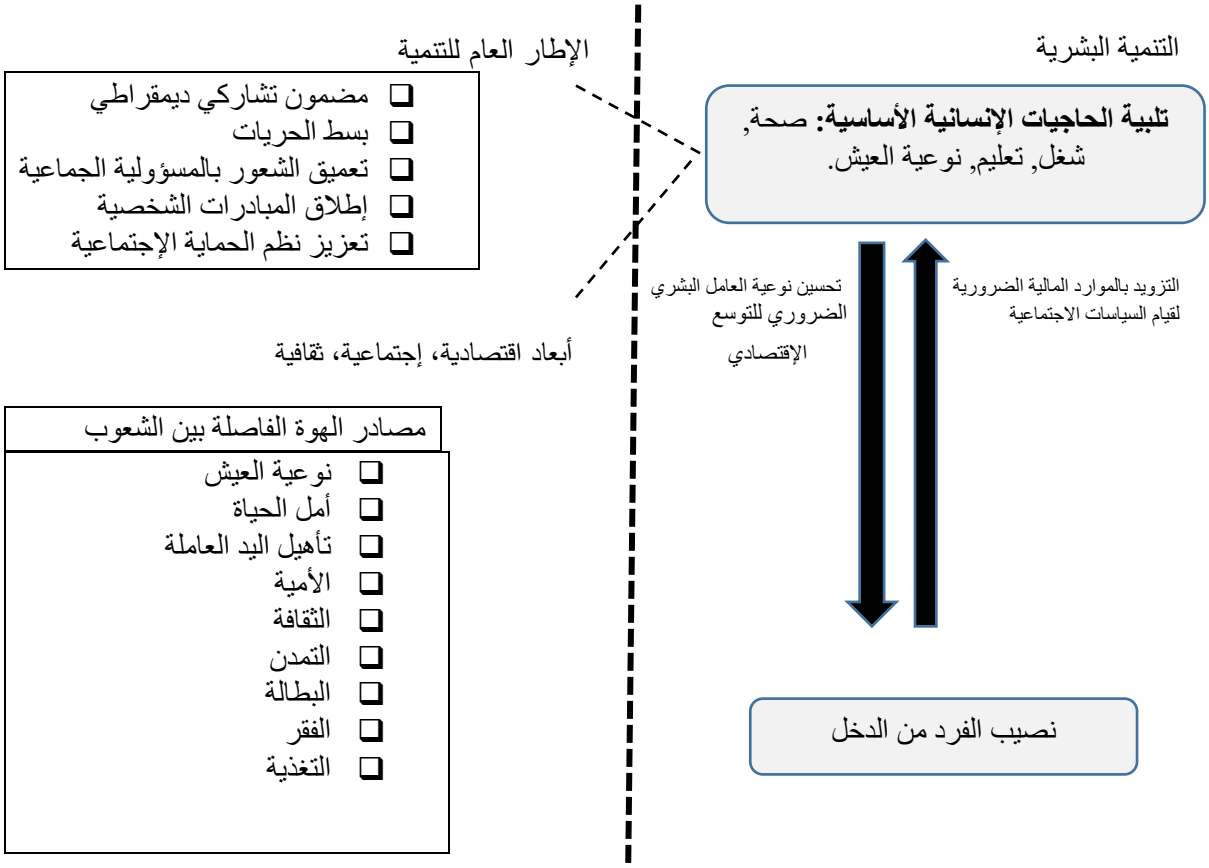

المصدر: من إستنتاج الباحث

الخاتمة:

الفاصل بين البلدان الغنية والعالم الثالث يستمر في الاتساع و ذلك بشهادة أرقام برامج الأمم المتحدة من أجل التنمية، غير أن الأسطوانة المتكررة مفادها: "العالم الثالث سيستفيد من النمو المتواصل، و الحلول المقترحة من طرف دول الشمال أو المنظمات الدولية هي الحل المعجز لمشاكل التنمية البشرية و الاقتصادية ككل" تبدو قراءات غير واقعية للأمور.

لعل النظم الإقتصادية الغربية أنتجت مشاكل كبيرة بالنسبة للعالم ككل وليس عندها فقط, فبغض النظر عن الانهيار الإقتصادي الذي تمر به الشركات الكبرى العالمية، والبطالة المستشرية في كبرى الدول الصناعية، والكساد التجاري, نجد أن الغرب يستمر في محاولة فرض نظمه الاقتصادية التي أنتجت كل هذه المشاكل عنده على البلاد النامية, ولأن هذه البلاد لا ترى إلا الجانب المضيء من هذه النظم فإنها ترضخ لسياسات الدول الغربية, وحتى عندما ترى المساوئ لا تستطيع فعل شيء أمام هذا الطوفان الغربي لأنها لا تملك أمر نفسها فعلاً.

قائمة المراجع:

RIST, Gilbert. Le développement : histoire d'une croyance occidentale. Paris : Presses de la Fondation nationale des sciences politiques, 1996.

HASAN, Samiul, et al. The Muslim World in the 21st Century. Springer, Pays-Bas, 2012.

BERR, Eric, HARRIBEY, Jean-Marie, et HUGON, Philippe. Le développement en question (s). Presses Univ de Bordeaux, 2006.

BADDACHE, Farid. Le développement durable. Editions Eyrolles, 2011.

WILKINSON, Richard et PICKETT, Kate. Pourquoi l'égalité est meilleure pour tous. Les Petits Matins, 2014.

Godard, O., & Hubert, B. (2002). Le développement durable et la recherche scientifique à l'INRA. Paris: INRA Edition, Rapport intermédiaire de mission.

JEGOU, A. (2007). Les origines du développement durable. L'Information géographique, 71(3), 19-28.

« Au Bangladesh une ouvrière du textile meurt tous les deux jours » publié sur : www.bastamag.net/Au-Bangladesh-une-ouvriere-du (paru le15 Mai 2013)

« The Progressive Increase of Food Waste in America and Its Environmental Impact» publié sur : journals.plos. org/plosone /article?id=10.1371/journal. (paru le 25 Novembre 2009).

«Chrétiens et musulmans en Orient : l'Empire romain », publié sur : www.souvenirfrancais issy.com/2015/06/ chretiens- et-musulmans -en-orient-1-3-l-empire-romain.html (paru le 27 juin 2015)

Site web : keepschool.com/fiches-de-cours/lycee/geographie/tiers-monde-sous developpement.html

« JAPON : Situation générale » publié sur : www.axl.cefan.ulaval.ca/asie/japon-1general.htm (paru le 27 Décembre 2015)

Générale des Nations Unies، A. (1948). Déclaration universelle des droits de l'homme. Résolution 217A (III), 10.

UNIES, Nations. Rapport mondial sur le développement humain, 1990.

ULMANN, A. (1932). La vocation de l'économie : introduction a des études sur l'économie. Esprit (1932-1939), 1(2), 227-243.

HASSNER Pierre, l'Europe de l'est entre l'est et l'Europe, Revue française de science politique Année 1969 Volume 19 Numéro 1 pp. 101-144.

مشروع مارشال, موقع الجزيرة, مقال منشور عبر الصفحة:

http://www.aljazeera.net/encyclopedia

[1] -Godard، O., & Hubert، B. (2002). Le développement durable et la recherche scientifique à l'INRA. Paris : INRA Edition, Rapport intermédiaire de mission.

[2] - JEGOU, A. (2007). Les origines du développement durable. L'Information géographique, 71(3), 19-28.

[3]- «Chrétiens et musulmans en Orient: l'Empire romain» publié sur: www.souvenirfrancaisissy.com/2015/06/ chrétiens-et-musulmans -en-orient-1-3-l-empire-romain.html (27 juin 2015).

[4] -« JAPON : Situation générale » publié sur www.axl.cefan.ulaval.ca/asie/japon-1general.htm (27 Décembre 2015)

[5] -ROSLING, Hans, ROSLING RÖNNLUND, A., et ROSLING, H. Data in Gapminder World. 2005.

[6] -BERR, Eric, HARRIBEY, Jean-Marie, et HUGON, Philippe. Le développement en question (s). Presses Univ de Bordeaux, 2006, p245.

[7] - Générale des Nations Unies, A. (1948). Déclaration universelle des droits de l'homme. Résolution 217A (III), 10.

[8] - UNIES, Nations. Rapport mondial sur le développement humain 1990, p01.

[9] - Générale des Nations Unies, op.cit., p05.

[10] - ULMANN, A. (1932). LA VOCATION DE L'ÉCONOMIE : INTRODUCTION A DES ÉTUDES SUR L'ÉCONOMIE. Esprit (1932-1939), 1(2), 227-243.

1- RIST, Gilbert. Le développement : histoire d'une croyance occidentale. Paris : Presses de la Fondation nationale des sciences politiques, 1996, p81.

[12]-HASSNER Pierre, l'Europe de l'est entre l'est et l'Europe, Revue française de science politique, Année 1969, Volume 19, Numéro 1, p 101-144.

[13] - مشروع مارشال, موقع الجزيرة, مقال منشور عبر الصفحة: http://www.aljazeera.net/encyclopedia

[14] - RIST Gilbert, op.cit., p129.

15 "-Au Bangladesh، une ouvrière du textile meurt tous les deux jours » publié sur : www.bastamag.net/Au-Bangladesh-une-ouvriere-du (15 Mai 2013)

[16]- The Progressive Increase of Food Waste in America and Its Environmental Impact' publié sur journals.plos.org/plosone/article?id=10.1371/journal.pone.0007940 (25 Novembre 2009)